القسم الثاني من دراسة العلامة الطباطبائي ﷺ

أدب الأنبياء

في القرآن الكريم

ومن ذلك ما حكاه الله عن يوسف الصديق حين هددته امرأة العزيز بالسجن إن لم يفعل ما كانت تأمره به: ﴿قال رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلّا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين﴾[1].

يذكر عليه السلام لربه أن أمره يدور عندهن في موقفه ذاك بين السجن وبين إجابتهن إلى ما يسألنه، وأنه بعلمه الذي أكرمه الله به، وهو المحكي عنه في قوله تعالى: ﴿ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً﴾[2] يختار السجن على إجابتهن، غير أن الأسباب منضودة على طبق ما يرجونه منه، قوية غالبة، فهي تهدده بالجهل بمقام ربه وإبطال ما عنده من العلم بالله، ولا حكم في ذلك إلا له تعالى كما قال لصاحبه في السجن: ﴿إن الحكم إلا لله﴾[3] ولذلك تأدب عليه السلام ولم يذكر لنفسه حاجة لأنه حكم بنحو، بل لوح إلى تهديد الجهل إياه بإبطال نعمة العلم التي أكرمه بها ربه، وذكر أن نجاته من مهلكة الجهل واندفاع كيدهن تتوقف إلى صرفه تعالى فسلم الأمر إليه وسكت.

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن وهو الصبوة وإلا فالسجن، فتخلص من السجن والصبوة جميعاً، ومنه يعلم أن مراده من كيدهن هو الصبوة والسجن جميعاً، وأما قوله عليه السلام: ﴿رب السجن أحب إلي...﴾ فإنما هو تمايل قلبي إلى السجن على تقدير تردد الأمر وكناية عن النفرة والمباغضة للفحشاء وليس بسؤال منه للسجن كما قال [الإمام الحسين] عليه السلام:

الموت أولى من ركوب العار

والعار أولى من دخول النار

لا كما ربما يُظنّ أنه سأل بذلك السجن فقضي له به. والدليل على ما ذكرناه قوله تعالى بعده: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجُننّه حتى حين﴾[4] لظهور الآية أن سجنه كان عن رأي بدا لهم بعد ذلك، وقد كان الله سبحانه صرف عنه قبل ذلك كيدهن بالدعوة إلى أنفسهن والتهديد بالسجن.

ومنه ما حكى الله سبحانه من ثنائه ودعائه عليه السلام حيث قال: ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين * ورفع أبويه على العرش وخرُّوا له سُجّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ

الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم * رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحِقْني بالصالحين﴾[٥].

فليتدبر الباحث فيما تعطيه الآيات من أدب النبوة ولتمثل عنده ما كان عليه يوسف عليه السلام من الملك ونفوذ الأمر، وما كان عليه أبواه من توقان النفس إلى لقائه، وما كان عليه إخوته من التواضع، وهم جميعاً على ذكر من تاريخ حياته من حين فقدوه إلى حين وجدوه وهو عزيز مستوٍ على عرش العزة والهيمنة.

لم يشقّ عليه السلام فماً بكلام إلا ولربه فيه نصيب أو كل النصيب إلا ما أصدره من الأمر بقوله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ فأمرهم بالدخول وحكم لهم بالأمن، ولم يستتم الكلام حتى استثنى فيه بمشيئة الله لئلا يوهم الاستقلال في الحكم دون الله، وهو عليه السلام القائل: ﴿إن الحكم إلا لله﴾.

ثم شرع في الثناء على ربه فيما جرى عليه منذ فارقهم إلى أن اجتمع بهم وبدأ في ذلك بقصة رؤياه وتحقق تأويلها وصدّق فيه أباه لا فيما عبّرها به فقط بل حتى فيما ذكره في آخر كلامه من علم الله وحكمته توغلاً منه في الثناء على ربه حيث قال له أبوه: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك... إن ربك عليم حكيم﴾[٦] وقال له يوسف ههنا بعدما صدقه فيما عبر به رؤياه: ﴿إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾[٧].

ثم أشار إلى إجمال ما جرى عليه ما بين رؤياه وتأويلها، فنسبها إلى ربه ووصفها بالحسن، وهو من الله إحسان.

ومن ألطف أدبه توصيفه ما لقي من إخوته حين ألقوه في غيابة الجب إلى أن شروه بثمن بخس دراهم معدودة، واتهموه بالسرقة بقوله: ﴿نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾.

ولم يزل يذكر نعم ربه ويثني عليه ويقول: ربي وربي حتى غشيه الوله وأخذته جذبة إلهية فاشتغل بربه وتركهم كأنه لا يعرفهم، وقال: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث﴾ فأثنى على ربه بحاضر نعمه عنده، وهو الملك والعلم بتأويل الأحاديث، ثم انتقلت نفسه الشريفة من ذكر النعم إلى أن ربه الذي أنعم عليه بما أنعم لأنه فاطر السماوات والأرض، ومخرج كل شيء من العدم البحت إلى الوجود من غير أن يكون لشيء من الأشياء جدة من نفسه يملك به ضراً أو نفعاً أو نعمة أو نقمة أو صلاحية أن يدبر أمر نفسه في دنيا أو آخرة.

وإذ كان فاطر كل شيء فهو ولي كل شيء، ولذلك ذكر بعد قوله: ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أنه عبد داخر لا يملك تدبير نفسه في دنيا ولا آخرة بل هو تحت ولاية الله سبحانه يختار له من الخير ما يشاء ويقيمه أي مقام أراد فقال: ﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة﴾ وعندئذ ذكر ما له من مسألة يحتاج فيها إلى ربه وهو أن ينتقل من الدنيا إلى الآخرة وهو في حال الإسلام إلى ربه على حد ما منحه الله آباءه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب. قال تعالى: ﴿ولقد

اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم ـ وهو الاصطفاء ـ قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾[٨].

وهو قوله: ﴿توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ يسأل التوفي على الإسلام ثم اللحوق بالصالحين، وهو الذي سأله جده إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين﴾[٩] فأجيب إليه كما في الآيات المذكورة آنفاً. وهذا آخر ما ذكر الله من حديثه وختم به قصته، وأن إلى ربك المنتهى، وهذا مما في السياقات القرآنية من عجيب اللطف.

ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه عن نبيه موسى عليه السلام في أوائل نشوئه بمصر حين وكز القبطي فقضى عليه: ﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾[١٠] وقوله حين فرّ من مصر فبلغ مدين وسقى لابنتي شعيب، ثم تولى إلى الظل فقال: ﴿رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾[١١].

وقد استعمل عليه السلام في مسألتيه من الأدب بعد الالتجاء بالله والتعلق بربوبيته أن صرح في دعائه الأول بالطلب لأنه كان متعلقاً بالمغفرة والله سبحانه يحب أن يُستغفر كما قال: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾[١٢] وهو الذي دعا إليه نوح فمن بعده من الأنبياء عليهم السلام، ولم يصرح بحاجته بعينه في دعائه الثاني الذي ظاهره بحسب دلالة المقام أنه كان يريد رفع حوائج الحياة كالغذاء والمسكن مثلاً بل إنما ذكر الحاجة ثم سكت، فما للدنيا عند الله من قدر.

واعلم أن قوله عليه السلام: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ يجري في الاعتراف بالظلم وطلب المغفرة مجرى قول آدم وزوجته: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ بمعنى أن المراد بالظلم هو ظلمه على نفسه لاقترافه عملاً يخالف مصلحة حياته كما أن الأمر كان على هذا النحو في آدم وزوجته.

فإن موسى عليه السلام إنما فعل ما فعل قبل أن يبعثه الله بشريعته الناهية عن القتل وإنما قتل نفساً كافرة غير محترمة، ولا دليل على وجود النهي عن مثل هذا القتل قبل شريعته. وكان الأمر في عصيان آدم وزوجته على هذه الوتيرة فقد ظلما أنفسهما بالأكل من الشجرة قبل أن يشرع الله شريعة بين النوع الإنساني فإنما أسس الله الشرائع ـ كائنة ما كانت ـ بعد هبوطهما من الجنة إلى الأرض.

ومجرد النهي عن اقتراب الشجرة لا دليل على كونه مولوياً مستلزماً لتحقق المعصية المصطلحة بمخالفته، مع أن القرائن قائمة على كون النهي المتعلق بهما إرشادياً كما في آيات سورة طه على ما بيناه في تفسير قصة جنة آدم في الجزء الأول من الكتاب.

على أن الكتاب الإلهي نص في كون موسى عليه السلام مخلصاً، وأن إبليس لا سبيل له إلى إغواء المخلَصين من عباد الله تعالى، ومن الضروري أن لا معصية بدون إغواء إبليس. قال الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلَصاً

وكان رسولاً نبياً﴾[١٣] وقال تعالى: ﴿قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين﴾[١٤].

ومن هنا يظهر أن المراد بالمغفرة المسؤولة في دعائه كما في دعائهما عليهما السلام ليست هي إمحاء العقاب الذي يكتبه الله على المجرمين كما في المعاصي المولوية بل إمحاء الآثار السيّئة التي كان يستتبعها الظلم على النفس في مجرى الحياة. فقد كان موسى عليه السلام يخاف أن يفشو أمره ويظهر ما هو ذنب له عندهم، فسأله تعالى أن يستر عليه ويغفره، والمغفرة في عرف القرآن أعم من إمحاء العقاب بل هي إمحاء الأثر السيئ كائناً ما كان، ولا ريب أن أمر الجميع بيد الله سبحانه.

ونظير هذا من وجه قول نوح عليه السلام فيما تقدم من دعائه ﴿وإن لم تغفر لي وترحمني﴾ أي وإن لم تؤدبني بأدبك، ولم تعصمني بعصمتك ووقايتك وترحمني بذلك أكن من الخاسرين، فافهم ذلك.

ومنه دعاؤه عليه السلام أول ما أُلقي إليه الوحي وبُعث بالرسالة إلى قومه على ما حكاه الله، قال تعالى: ﴿قال رب اشرح لي صدري * ويسِّر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبّحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً﴾[١٥].

ينصح عليه السلام لما بعث له من الدعوة الدينية ويذكر لربه ـ على ما يفيده الكلام بإعانة من المقام ـ إنك كنت بصيراً بحالي أنا وأخي، منذ نشأنا نحب تسبيحك، وقد حملتني الليلة ثقل الرسالة وفي نفسي من الحدة وفي لساني من العقدة ما أنت أعلم به، وإني أخاف أن يكذبوني إن دعوتهم إليك وبلَّغتهم رسالتك فيضيق صدري ولا ينطلق لساني، فاشرح لي صدري، ويسر لي أمري، وهذا رفع التحرج الذي ذكره الله بقوله: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلَوا من قبل﴾[١٦] واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، وأخي هارون أفصح مني لساناً وهو من أهلي فأشركه في هذا الأمر واجعله وزيراً لي كي نسبحك ـ كما كنا نحبه ـ كثيراً ونذكرك عند ملأ الناس بالتعاضد كثيراً. فهذا محصل ما سأله عليه السلام ربه من أسباب الدعوة والتبليغ، والأدب الذي استعمل فيه أن ذكر غايته وغرضه من أسئلته لئلا يوهم كلامه أنه يسأل ما يسأل لنفسه فقال: ﴿كي نسبِّحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾ استشهد على صدقه في دعواه بعلم الله نفسه بإلقاء أنفسهما بين يديه وعرضها عليه فقال: ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾. وعرض السائل المحتاج نفسه في حاجتها على المسؤول الغني الجواد من أقوى ما يهيج عاطفة الرحمة لأنه يفيد إراءة نفس الحاجة فوق ما يفيده ذكر الحاجة باللسان الذي لا يمتنع عليه أن يكذب.

ومنه ما حكى الله عنه مما دعا به على فرعون وملأه إذ قال: ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربَّنا ليُضلُّوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يرَوُا العذابَ الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما

فــاستقيما ولا تــتبعانِّ ســبيل الذيــن لا يعلمون﴾[١٧].

الدعاء لموسى وهارون ولذلك صدر بكـلمة ﴿ربنا﴾ ويدلّ عليه ما في الآية التالية : ﴿قال قد أجيبت دعوتكما﴾ دعوا أولاً عـلى أمـوالهـم أن يطمس الله عليها ثم على أنفسهم أن يشد الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العـذاب الأليـم فـلا يقبل إيمانهم كما قال تعالى : ﴿يوم يأتـي بـعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكـن آمـنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾[١٨] أي انتقم منهم بتحريم الإيمان عليهم بمفاجأة العذاب كما حرموه على عباده بـإضلالهم، وهـذا أشـد مـا يمكن أن يدعى به على أحد، فإنه الدعاء بالشقوة الدائمة ولا شيء شراً منه بالنسبة إلى إنسان.

والدعاء بالشر غير الدعاء بالخير حكماً، فإن الرحمة الإلهية سبقت غضبه، وقد قـال لمـوسى فيما أوحى إليه : ﴿عذابي أصيب بـه مـن أشـاء ورحمتي وسعتْ كلَّ شـيء﴾[١٩] فسعة الرحـمة الإلهية تقضي بكراهية إصابة الشر والضر لعبد من عباده وإن كان ظالماً، ويشهد بذلك ما يفيض الله سبحانه من نعمة عليهم وسترهم بكـرمه وأمـره عباده بالحلم والتصبر عند جـهالتهم وخـرقهم، اللهم إلا في إقامة حق لازم، أو عند اضطرار فـي مظلمة إذا كانوا على عـلم بـإن مـصلحة مـلزمة كمصلحة الدين أو أهل الدين تقتضي ذلك.

على أن جهات الخير والسعادة كـلما كـانت أرقّ لطافة وأدقّ رتبة كانت أوقع عـند النـفوس بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، بخلاف جهات الشر والشقاء فإن الإنسان بحسب طبعه يفر مـن الوقوف عليها، ويحتال أن لا يلتفت إلى أصـلها، فضلاً عن تفاصيل خصوصياتها، وهـذا المعنى يوجب اختلاف الدعاءين أعني الدعـاء بـالخير والدعاء بالشر من حيث الآداب.

فمن أدب الدعاء بالشر أن تذكر الأمور التي بعثت إلى الدعاء بالتكنية وخـاصة فـي الأمـور الشـنيعة الفـظيعة بـخلاف الدعـاء بـالخير فـإن التصريح بعوامل الدعاء فيه هو المـطلوب، وقـد راعاه عليه‌السلام في دعائه حيث قال : ﴿ليضلوا عن سبيلك﴾ ولم يأت بتفاصيل ما كانت تأتي بـه آل فرعون من الفظائع.

ومن أدبه الإكثار من الاستغاثة والتضرع وقد راعاه فيما يقول : ﴿ربنا﴾ وتكرره مرات في دعائه على قصره.

ومن أدبه أن لا يقدم عليه إلا مع العـلم بأنـه على مصلحة الحق من دين أو أهله مـن دون أن يجري على ظن أو تهمة، وقد كان عليه‌السلام عـلى علم منه وقد قال الله فيه : ﴿ولقـد أريـناه آيـاتنا كـلها فكـذب وأبـى﴾[٢٠] وكـأنـه لذلك أمـره الله سبحانه وأخاه عندما أخبرهما بالاستجابة بقوله : ﴿فاستقيما ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون﴾ والله أعلم.

ومن دعاء موسى ما حكاه الله عنه في قـوله : ﴿واختار موسى قومه سبعين رجـلاً لمـيقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تُضلّ بها من تشـاء وتـهدي مـن تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خـير الغافرين * واكتب لنا فـي هـذه الدنـيا حسـنة

وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾[٢١].

يبتدئ الدعاء من قوله: ﴿فاغفر لنا...﴾ غير أن الموقف لما كان موقفاً صعباً قد أخذهم الغضب الإلهي والبطش الذي لا يقوم له شيء، وما مسألة المغفرة والرحمة من سيد ساخط قد هتكت حرمته وأهين على سؤدده كمسألة من هو في حال سويّ فلذلك قدّم عليه‌السلام ما تسكن به فورة الغضب الإلهي حتى يتخلص إلى طلب المغفرة والرحمة، فقال: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ يريد عليه‌السلام ـ كما تدل عليه قرينة المقام ـ رب إن نفسي ونفوسهم جميعاً قبض قدرتك، وطوع مشيئتك، لو شئت أهلكتهم وأنا فيهم قبل اليوم كما أهلكتهم اليوم وأبقيتني؛ فماذا أقول لقومي إذا رجعت إليهم واتهموني بأني قتلتهم، وحالهم ما أنت أعلم به؟ وهذا يبطل دعوتي ويحبط عملي.

ثم عد عليه‌السلام إهلاك السبعين إهلاكاً له ولقومه فذكر أنهم سفهاء من قومه لا يعبأ بفعلهم فأخذ ربه برحمته حيث لم يكن من عادته تعالى أن يهلك قوماً بفعل السفهاء منهم، وليس ذلك إلا مورداً من موارد الامتحان العام الذي لا يزال جارياً على الإنسان فيضلّ به كثير، ويهتدي به كثير، ولم تقابلها إلا بالصفح والستر.

وإذ كان بيدك أمر نفسي ونفوسنا تقدر على إهلاكنا متى شئت، وكانت هذه الواقعة غير بدع في مسير امتحانك العام الذي يعقب ضلال قوم وهداية آخرين، ولا ينتهي إلا إلى مشيئتك فأنت ولينا الذي يقوم بأمرك ومشيئتك تدبير أمورنا، ولا صنع لنا فيها فاقض فينا بالمغفرة والرحمة فإن من جملة صفاتك أنك خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا عيشة آمنة من العذاب وهي التي يستحسنها من أحاط به غمر السخط الإلهي، وفي الآخرة حسنة بالمغفرة والجنة.

وهذا ما ساقه عليه‌السلام في مسألته، وقد أخذتهم الرجفة وشملتهم البلية؛ فانظر كيف استعمل جميل أدب العبودية واسترحم ربه، ولم يزل يستوهب الرحمة، ويسكن بثنائه فورة السخط الإلهي حتى أجيب إلى ما لم يذكره من الحاجة بين ما ذكره، وهو إعادة حياتهم إليهم بعد الإهلاك، وأوحي إليه بما حكاه الله تعالى: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[٢٢] فما ظنك به تعالى بعدما قال لموسى عليه‌السلام جواباً لمسألته: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾؟.

وقد ذكر تعالى صريح عفوه عن هؤلاء، وإجابته إلى مسألته موسى عليه‌السلام بإعادة الحياة إليهم وقد أهلكوا وردهم إلى الدنيا بقوله: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[٢٣] ويقرب من ذلك ما في سورة النساء.

وقد استعمل عليه‌السلام من الأدب في كلامه حيث قال: ﴿تضلّ بها من تشاء﴾ لم يذكر أن ذلك من سوء اختيار هؤلاء الضالين لينزهه تعالى لفظاً كما كان ينزهه قلباً فيكون على حد قوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾[٢٤] لأن المقام كان يصرفه

عن التعرض إلا لكونه تعالى ولياً على الإطلاق ينتهي إليه كل التدبير لا غير.

ولم يورد في الذكر أيضاً عمدة ما في نفسه من المسألة وهو أن يحييهم الله سبحانه بعد الإهلاك لأن الموقف على ما كان فيه من هول وخطر كان يصرفه عن الاسترسال، وإنما أشار إليه إشارة بقوله: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي...﴾.

ومن دعائه عليه‌السلام ما دعا به حين رجع إلى قومه من الميقات فوجدهم قد عبدوا العجل من بعده، وقد كان الله سبحانه أخبره بذلك. قال تعالى: ﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾[٢٥]. فعند ذلك رقّ له ودعا له ولنفسه ليمتازا بذلك من القوم الظالمين: ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾[٢٦].

ولم يكن يريد التميّز منهم وأن يدخلهما الله في رحمته إلا لما كان يعلم أن الغضب الإلهي سينال القوم بظلمهم كما ذكره الله بقوله بعد ذلك: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾[٢٧]. ويعرف بما تقدم وجوه من الأدب في كلامه.

ومن دعائه عليه‌السلام ـ وهو في معنى الدعاء على قومه إذ قالوا له حين أمرهم بدخول الأرض المقدسة: ﴿يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾[٢٨] ـ ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾[٢٩].

وقد أخذ عليه‌السلام بالأدب الجميل حيث كنّى عن الإمساك عن أمرهم وتبليغهم أمر ربهم ثانياً بعدما جبهوا أمره الأول بأقبح الردّ وأشنع القول بقوله: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ أي لا يطيعني فيما أمرته إلا نفسي وأخي أي إنهم ردوا عليّ بما لا مطمع فيهم بعده، فها أنا أكفّ عن أمرهم بأمرك وإرشادهم إلى ما فيه صلاح جماعتهم.

وإنما نسب ملك نفسه وأخيه إلى نفسه لأن مراده من الملك بقرينة المقام ملك الطاعة. ولو كان هو الملك التكويني لم ينسبه إلى نفسه إلا مع بيان أن حقيقته لله سبحانه، وإنما له من الملك ما ملكه الله إياه، ولما عرض لربه من نفسه الإمساك واليأس عن إجابتهم إليه أحال الحكم في ذلك فقال: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾.

ومن ذلك ما دعا به شعيب عليه‌السلام على قومه إذ قال: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[٣٠].

وهذا استنجاز منه للوعد الإلهي بعدما يئس من نجاح دعوته فيهم، ومسألة للقضاء بينه وبينهم بالحق على ما قاله الله تعالى: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[٣١].

وإنما قال: «بيننا» لأنه ضم المؤمنين به إلى نفسه، وقد كان الكافرون من قومه هددوا إياه والمؤمنين به جميعاً إذ قالوا: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنّ في ملتنا﴾[٣٢] فضمّهم إلى نفسه وهاجر قومه في

عملهم وسار بهم إلى ربه وقال: ﴿ربنا افتح بيننا...﴾.

وقد استمسك في دعائه باسمه الكريم: ﴿خير الفاتحين﴾ لما مر أن التمسك بالصفة المناسبة لمتن الدعاء تأييد بالغ بمنزلة الإقسام، وهذا بخلاف قول موسى عليه‌السلام: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ المنقول آنفاً لما تقدم أن لفظه عليه‌السلام ليس بدعاء حقيقة بل هو كناية عن الإمساك عن الدعوة وإرجاع للأمر إلى الله فلا مقتضى للإقسام بخلاف قول شعيب.

ومن ذلك ما حكاه الله من ثناء داود وسليمان عليهما‌السلام قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾(٣٣).

وجه الأدب في حمدهما وشكرهما ونسبة ما عندهما من فضيلة العلم إلى الله سبحانه ظاهر، فلم يقولا مثل ما حكي عن غيرهما كقول قارون لقومه إذ وعظوه أن لا يستكبر في الأرض بماله: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾(٣٤) وكما حكى الله عن قوم آخرين: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾(٣٥).

ولا ضير في الحمد على تفضيل الله إياهما على كثير من المؤمنين فإنه من ذكر خصوص النعمة وبيان الواقع، وليس ذلك من التكبر على عباد الله حتى يلحق به ذم، وقد ذكر الله عن طائفة من المؤمنين سؤال التفضيل ومدحهم على علو طبعهم وسموّ همتهم حيث قال: ﴿والذين يقولون ربنا... واجعلنا للمتقين إماماً﴾(٣٦).

ومن ذلك ما حكاه عن سليمان عليه‌السلام في قصة النملة بقوله: ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾(٣٧)

ذكرته النملة بما قالته ما له من الملك العظيم الذي شيدت أركانه بتسخير الريح تجري بأمره، والجن يعملون له ما يشاء، والعلم بمنطق الطير وغيره. غير أن هذا الملك لم يقع في ذكره عليه‌السلام في صورة أجلى أمنية يبلغها الإنسان كما فينا ولم ينسه عبوديته ومسكنته بل إنما وقع في نفسه في صورة نعمة أنعمها عليه ربه فذكر ربه ونعمته أنعمها عليه وعلى والديه بما خصهم به، وهو من مثله عليه‌السلام والحال هذا الحال أفضل الأدب مع ربه.

وقد ذكر نعمة ربه، وهي وإن كانت كثيرة في حقه غير أن مورد نظره عليه‌السلام والمقام ذاك المقام ـ هو الملك العظيم والسلطة القاهرة ـ ولذلك ذكر العمل الصالح وسأل ربه أن يوزعه ليعمل صالحاً لأن العمل الصالح والسيرة الحسنة هو المطلوب ممن استوى على عرش الملك.

فلذلك كله سأل ربه أولاً أن يوزعه على شكر نعمته، وثانياً أن يعمل صالحاً، ولم يرض بسؤال العمل الصالح دون أن قيّده بقوله: «ترضاه» فإنه عبد لا شغل له بغير ربه؛ ولا يريد الصالح من

العمل إلا لأن ربه يرضاه، ثم تمم مسألة التوفيق لصلاح العمل بمسألة صلاح الذات فقال: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾.

ومن ذلك ما حكاه الله عن يونس عليه السلام وقد دعا به وهو في بطن الحوت الذي التقمه قال تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾(٣٨).

كان عليه السلام ـ على ما يقصه القرآن ـ قد سأل ربه أن ينزل على قومه العذاب فأجابه إلى ذلك فأخبرهم به فلما أشرف عليهم العذاب بالنزول تابوا إلى ربهم فرفع عنهم العذاب، ولما شاهد يونس ذلك ترك قومه، وذهب لوجهه حتى ركب السفينة فاعترضها حوت فساهمهم في أن يدفعوا الحوت بإلقاء رجل منهم إليه ليلتقمه وينصرف عن الباقين، فخرجت القرعة باسمه فأُلقي في البحر فالتقمه الحوت، فكان يسبّح الله في بطنه إلى أن أمره الله أن يلقيه إلى ساحل البحر، ولم يكن ذلك إلا تأديباً إلهياً يؤدب به أنبياءه على حسب ما يقتضيه مختلف أحوالهم، وقد قال تعالى: ﴿ولولا أنه كان من المسبِّحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾(٣٩) فكان حاله في تركه العود إلى قومه وذهابه لوجهه يمثل حال عبد أنكر على ربه بعض عمله فغضب عليه فأبق منه وترك خدمته وما هو وظيفة عبوديته، فلم يرتض الله له ذلك، فأدبه فابتلاه وقبض عليه في سجن لا يقدر فيه أن يتوسع قدر أنملة في ظلمات بعضها فوق بعض فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ولم يكن ذلك كله إلا لأن يتمثل له على خلاف ما كان يمثله حاله أن الله سبحانه قادر على أن يقبض عليه ويحبسه حيث شاء، وأن يصنع به ما شاء فلا مهرب من الله سبحانه إلا إليه، ولذلك لقنه الحال الذي تمثل له وهو في سجنه من بطن الحوت أن يقر لله بأنه هو المعبود الذي لا معبود غيره، ولا مهرب عن عبوديته فقال: ﴿لا إله إلا أنت﴾ لم يناده تعالى بالربوبية، وهذا أوحد دعاء من أدعية الأنبياء عليهم السلام لم يصدر باسم الرب.

ثم ذكر ما جرى على الحال من تركه قومه إثر عدم إهلاكه تعالى إياهم بما أنزل عليهم من العذاب فأثبت الظلم لنفسه ونزه الله سبحانه عن كل ما فيه شائبة الظلم والنقص فقال: ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

ولم يذكر مسألته ـ وهي الرجوع إلى مقامه العبودي السابق ـ عدا لنفسه دون لياقة الاستعطاء واستحقاق العطاء استغراقاً في الحياء والخجل، والدليل على مسألته قوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾(٤٠).

والدليل على أن مسألته كانت هي الرجوع إلى سابق مقامه قوله تعالى: ﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون * فآمنوا به فمتعناهم إلى حين﴾(٤١).

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى عن أيوب عليه السلام بعد ما أزمنه المرض وهلك عنه ماله وولده حيث قال: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾(٤٢).

وجوه التأدب فيه ظاهرة مما تقدم بيانه، ولم

يذكر عليه السلام حاجته صريحاً على حد ما تقدم من أدعية آدم ونوح وموسى ويونس عليهم السلام هضماً لنفسه واستحقاراً لأمره، وأدعية الأنبياء ـ كما تقدم ويأتي ـ خالية عن التصريح بالحاجة إذا كان مما يرجع إلى أمور الدنيا وإن كانوا لا يريدون شيئاً من ذلك اتباعاً لهوى أنفسهم.

وبوجه آخر ذكره السبب الباعث إلى المسألة كمس الضر والصفة الموجودة في المسؤول المطمعة للسائل في المسألة ككونه تعالى أرحم الراحمين، والسكوت عن ذكر نفس الحاجة أبلغ كناية عن أن الحاجة لا تحتاج إلى ذكر فإن ذكرها يوهم أن الأسباب المذكورة ليست بكافية في إثارة رحمة من هو أرحم الراحمين بل يحتاج إلى تأييد بالذكر وتفهيم باللفظ.

ومن ذلك ما حكاه عن زكريا عليه السلام: حيث قال: ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفياً * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً * وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾[٤٣].

إنما حثه على هذا الدعاء ورغّبه في أن يستوهب ولداً من ربه ما شاهده من أمر مريم ابنة عمران في زهدها وعبادتها، وما أكرمها الله سبحانه به من أدب العبودية، وخصها به من كرامة الرزق من عنده على ما يقصه الله تعالى في سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿وكفّلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب * هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾[٤٤]

فغشيه شوق شديد إلى ولد طيب صالح يرثه ويعبد ربه عبادة مرضية كما ورثت مريم ابنة عمران وبلغت جهدها في عبادة ربها ونالت منه الكرامة غير أنه وجد نفسه وقد نال منه الشيب، وانهدّت منه القوى، وكذلك امرأته وقد كانت عاقراً في سني ولادتها فأدركته من حسرة الحرمان من نعمة الولد الطيب الرضي ما الله أعلم به، لكن لم يملك نفسه مما هاج فيه من الغيرة الإلهية والاعتزاز بربه دون أن رجع إلى ربه وذكر له ما يثور به الرحمة والحنان من حاله أنه لم يزل عالقاً على باب العبودية والمسألة منذ حداثة سنه حتى وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً، ولم يكن بدعائه شقياً، وقد وجده سبحانه سميع الدعاء فليسمع دعاءه وليهب له وارثاً رضياً.

والدليل على ما ذكرنا أنه إنما سأل ما سأل بما ملك نفسه من هيجان الوجد والحزن ما حكاه الله تعالى عنه بعدما أوحي إليه بالاستجابة بقوله: ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً * قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾[٤٥] فإنه ظاهر في أنه عليه السلام لما سمع الاستجابة صحا عن حاله وأخذ يتعجب من غرابة المسألة والإجابة حتى سأل ربه عن ذلك في صورة الاستبعاد وسأل لنفسه عليه آية فأجيب إليها أيضاً.

وكيف كان، فالذي استعمله عليه السلام في دعائه

من الأدب هو ما ساقه إليه حال الوجد والحزن الذي ملكه، ولذلك قدم على دعائه بيان ما بلغ به الحال في سبيل ربه فقد صرف دهره في سلوك سبيل الإنابة والمسألة حتى وقف موقفاً يرقّ له قلب كل ناظر رحيم ثم سأل الولد وعلله بأن ربه سميع الدعاء.

فهذا معنى ما ذكره مقدمة لمسألته، لا أنه كان يمتن بطول عبوديته على ربه ـ حاشا مقام النبوة ـ فمعنى قوله على ما في سورة آل عمران: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ أني أسألك ما أسألك لا لأن لطول عبوديتي ـ وهو دعاؤه المديد ـ قدراً عندك أو فيه منة عليك بل لأني أسألك، وقد وجدتك سميعاً لدعاء عبادك ومجيباً لدعوة السائلين المضطرين، وقد اضطرني خوف الموالي من ورائي، والحث الشديد لذرية طيبة تعبدك أن أسألك.

وقد تقدم أن من الأدب الذي استعمله في دعائه أن ألحقَ تخوّف الموالي قوله: ﴿واجعله رب رضياً﴾ والرضي وإن كان طبعه يدل بهيئته على ثبوت الرضا لموصوفه، والرضا يشمل بإطلاقه رضى الله ورضى زكريا ورضى يحيى لكن قوله في آية آل عمران: ﴿ذرية طيبة﴾ يدلّ على أن المراد بكونه رضياً كونه مرضياً عند زكريا لأن الذرية إنما تكون طيبة لصاحبها لا غير.

ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المسيح حين سأل المائدة بقوله: ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾[٤٦].

القصة المذكورة في كلامه تعالى في سؤال الحواريين عيسى عليه‌السلام نزول مائدة من السماء عليهم تدلّ بسياقه أن هذه المسألة كانت من الأسئلة الشاقّة على عيسى عليه‌السلام لأن ما حكي عنهم من قولهم له: ﴿يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ كان أولاً مشتملاً بظاهره على الاستفهام عن قدرة الله سبحانه، ولا يوافق ذلك أدب العبودية وإن كان حاق مرادهم السؤال عن المصلحة دون أصل القدرة فإن حزازة اللفظ على حالها.

وكان ثانياً متضمناً لاقتراح آية جديدة مع أن آياته عليه‌السلام الباهرة كانت قد أحاطت بهم من كل جهة فكانت نفسه الشريفة آية، وتكلمه في المهد آية، وإحياؤه الموتى وخلقه الطير وإبراؤه الأكمه والأبرص وإخباره عن المغيبات وعلمه بالتوراة والإنجيل والكتاب والحكمة آيات إلهية لا تدع لشاك شكاً ولا لمرتاب ريباً. فاختيارهم آية لأنفسهم، وسؤالهم إياه كان بظاهره كالعبث بآيات الله واللعب بجانبه، ولذلك وبّخهم بقوله: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾.

لكنهم أصروا على ذلك ووجهوا مسألتهم بقولهم: ﴿نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾ وألجأوه إلى السؤال فسأل.

أصلح عليه‌السلام بأدبه الموهوب من جانب الله سبحانه ما اقترحوه من السؤال بما يصلح به أن يقدم إلى حضرة العزة والكبرياء فعنونه أولاً بعنوان أن يكون عيداً لهم يختصون هو وامته به. فإنها آية اقتراحية عديمة النظير بين آيات الأنبياء عليهم‌السلام حيث كانت آياتهم إنما تنزل لإتمام

الحجة أو لحاجة الأمة إلى نزولها، وهذه الآية لم تكن على شيء من هاتين الصفتين.

ثم أجمل ثانياً ما فصّله الحواريون من فوائد نزولها من اطمئنان قلوبهم بها وعلمهم بصدقه عليه‌السلام وشهادتهم عليها، في قوله: ﴿وآية منك﴾.

ثم ذكر ثالثاً ما ذكروه من عرض الأكل وأخّره وإن كانوا قدموه في قولهم: ﴿نريد أن نأكل منها...﴾ ألبسه لباساً آخر أوفق بأدب الحضور فقال: ﴿وارزقنا﴾ ثم ذيّله بقوله: ﴿وأنت خير الرازقين﴾ ليكون تأييداً للسؤال بوجه، وثناء له تعالى من وجه آخر.

وقد صدّر مسألته بندائه تعالى: ﴿اللهم ربنا﴾ فزاد على ما يوجد في سائر أدعية الأنبياء عليهم‌السلام من قولهم «رب» أو «ربنا» لأن الموقف صعب كما تقدم بيانه.

ومنه مشافهته عليه‌السلام ربه المحكية بقوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾(٤٧).

تأدب عليه‌السلام في كلامه أولاً بأن صدّره بتنزيهه تعالى عمّا لا يليق بقدس ساحته كما جرى عليه كلامه تعالى؛ قال: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه﴾(٤٨).

وثانياً بأن أخذ نفسه أدون وأخفض من أن يتوهم في حقه أن يقول مثل هذا القول حتى يحتاج إلى أن ينفيه، ولذلك لم يقل من أول مقالته إلى آخرها: «ما قلت» أو «ما فعلت» وإنما نفى ذلك مرة بعد مرة على طريق الكناية وتحت الستر فقال: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ فنفاه بنفي سببه أي لم يكن لي حق في ذلك حتى يسعني أن أتفوه بمثل ذاك القول العظيم، ثم قال: ﴿إن كنت قلته فقد علمته...﴾ فنفاه بنفي لازمه أي إن كنت قلته كان لازم ذلك أن تعلمه لأن علمك أحاط بي وبجميع الغيوب.

ثم قال: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فنفاه بإيراد ما يناقضه مورده على طريق الحصر بما وإلا أي إني قلت لهم قولاً ولكنه هو الذي أمرتني به، وهو أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكيف يمكن أن أقول لهم مع ذلك أن اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟

ثم قال: ﴿وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ وهو نفي منه عليه‌السلام لذلك، كالمتمم لقوله: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به...﴾ وذلك لأن معناه: ما قلت لهم شيئاً مما ينسب إليّ، والذي قلت لهم إنما قلته عن أمر منك، وهو ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ ولم يتوجه إلي أمر فيما سوى ذلك، ولا مساس بهم إلا الشهادة والرقوب لأعمالهم مادمت، فلما توفيتني انقطعت عنهم، وكنت أنت الرقيب عليهم بشهادتك الدائم العام قبل أن توفيتني وبعده

عليهم وعلى كل شيء غيرهم.

وإذ قد بلغ الكلام هذا المبلغ توجه له عليه‌السلام أن ينفي ذلك القول عن نفسه بوجه آخر متمم للوجوه التي ذكرها، وبه يحصل تمام النفي فقال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك...﴾ يقول ـ على ما يؤيده السياق ـ وإذا كان الأمر على ما ذكرت فأنا بمعزل منهم وهم بمعزل مني فأنت وعبادك هؤلاء إن تعذبهم فإنهم عبادك، وللسيد الرب أن يعذب عبيده بمخالفتهم وإشراكهم به وهم مستحقون للعذاب، وإن تغفر لهم فلا عتب عليك لأنك عزيز غير مغلوب وحكيم لا يفعل الفعل السفهي اللغو، وإنما يفعل ما هو الأصلح.

وبما بيّنا تظهر وجوه لطيفة من أدب العبودية في كلامه عليه‌السلام، ولم يورد جملة في كلامه إلا وقد مزجها بأحسن الثناء بأبلغ بيان وأصدق لسان.

ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن نبيه محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وقد ألحق به في ذلك المؤمنين من أمته فقال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾(٤٩).

كلامه تعالى ـ كما ترى ـ يحكي إيمان النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالقرآن الكريم فيما اشتمل عليه من أصول المعارف، وفيما اشتمل عليه من الأحكام الإلهية جميعاً، ثم يلحق به صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم المؤمنين من أمته دون المعاصرين الحاضرين عنده صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم منهم فحسب، بل المؤمنين من جميع الأمة على ما هو ظاهر السياق.

ولازم ذلك أن يكون ما ذكر فيه من إقرار أو ثناء أو دعاء بالنسبة إلى بعضهم محكياً عن لسان حالهم، وإن أمكن أن يكون ذلك مما قاله آخرون بلسان حالهم، أو يكون النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم هو القائل ذلك مشافهاً ربه عن نفسه الشريفة وعن المؤمنين لأنهم بإيمانهم من فروع شجرة نفسه الطيبة المباركة.

والآيتان تشتملان على ما هو كالمقايسة والموازنة بين أهل الكتاب وبين مؤمني هذه الأمة من حيث تلقّيهم ما أنزل إليهم في كتاب الله، وإن شئت قلت: من حيث تأدبهم بأدب العبودية تجاه الكتاب النازل إليهم، فإنه ظاهر ما أثنى الله سبحانه على هؤلاء وخفف الله عنهم في الآيتين بعين ما وبّخ أولئك عليه وعيّرهم به في الآيات السابقة من سورة البقرة، فقد ذمّ أهل الكتاب بالتفريق بين ملائكة الله فأبغضوا جبريل وأحبوا غيره، وبين كتب الله المنزلة فكفروا بالقرآن وآمنوا بغيره، وبين رسل الله فآمنوا بموسى أو به وبعيسى وكفروا بمحمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وبين أحكامه فآمنوا ببعض ما في كتاب الله وكفروا ببعض، والمؤمنون من هذه الأمة آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من

رسله.

فقد تأدبوا مع ربهم بالتسليم لما أحقه الله من المعارف الملقاة إليهم ثم تأدبوا بالتلبية لما ندب الله إليه من أحكامه إذ قالوا: ﴿سمعنا وأطعنا﴾ لا كقول اليهود: ﴿سمعنا وعصينا﴾ ثم تأدبوا فعدوا أنفسهم عباداً مملوكين لربهم لا يملكون منه شيئاً ولا يمتنون عليه بإيمانهم وطاعتهم فقالوا: ﴿غفرانك ربنا﴾ لا كما قالت اليهود: ﴿سيغفر لنا﴾ وقالت: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وقالت: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ إلى غير ذلك من هفواتهم.

ثم قال الله سبحانه: ﴿لا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ فإن التكليف الإلهي يتبع بحسب طبعه الفطرة التي فطر الناس عليها، ومن المعلوم أن الفطرة التي هي نوع الخلقة لا تدعو إلا إلى ما جهزت به، وفي ذلك سعادة الحياة البتة.

نعم لو كان الأمر على ضرب من الأهمية القاضية بزيادة الاهتمام به، أو خرج العبد المأمور عن حكم الفطرة وزي العبودية جاز بحكم آخر من قبل الفطرة أن يوجه المولى أو كل من بيده الأمر إليه من الحكم ما هو خارج عن سعته المعتادة كأن يأمره بالاحتياط بمجرد الشك، واجتناب النسيان والخطأ إذا اشتد الاهتمام بالأمر، نظير وجوب الاحتياط في الدماء والفروج والأموال في الشرع الإسلامي، أو يحمل عليه الكلفة ويزيد في التضييق عليه كلما زاد في اللجاج وألحّ في المسألة، كما أخبر الله بنظائر ذلك في بني إسرائيل.

وكيف كان فقوله: ﴿لا يكلف الله نفساً﴾ إما ذيل كلام النبي صلّى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون إنما قالوه تقدمة لقولهم: ﴿ربنا لا تؤاخذنا...﴾ ليجري مجرى الثناء عليه تعالى ودفعاً لما يتوهم أن الله سبحانه يؤاخذ بما فوق الطاقة ويكلف بالحرجي من الحكم، فيندفع بأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن الذي سألوه بقولهم: ﴿ربنا لا تؤاخذنا...﴾ إنما هو الأحكام بعناوين ثانوية ناشئة من قبل الحكم أو من قبل المكلفين بالعناد لا من قبله تعالى.

وإما كلام له تعالى موضوع بين فقرتين من دعائهم المحكي في كلامه أعني قولهم: ﴿غفرانك ربنا...﴾ وقولهم: ﴿ربنا لا تؤاخذ...﴾ ليفيد ما مرّ من الفائدة ويكون تأديباً وتعليماً لهم منه تعالى فيكون جارياً مجرى كلامهم لأنهم مؤمنون بما أنزل الله، وهو منه، وعلى أي حال فهو مما يعتمد عليه كلامهم، ويتكئ عليه دعاؤهم.

ثم ذكر بقية دعائهم وإن شئت فقل: طائفة أخرى من مسائلهم: ﴿ربنا لا تؤاخذنا...﴾ ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً...﴾ ﴿ربنا ولا تحمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا﴾ وكأن مرادهم به العفو عما صدر منهم من النسيان والخطأ وسائر موجبات الحرج ﴿واغفر لنا وارحمنا﴾ في سائر ذنوبنا وخطيئاتنا، ولا يلزم من ذكر المغفرة ههنا التكرار بالنظر إلى قولهم سابقاً: ﴿غفرانك ربنا﴾ لأنها كلمة حكيت عنهم لفائدة قياس حالهم وأدبهم مع ربهم على أهل الكتاب في معاملتهم مع ربهم وبالنسبة إلى كتابهم المنزل إليهم، على أن مقام الدعاء لا يمانع التكرار كسائر المقامات.

واشتمال هذا الدعاء على أدب العبودية في التمسك بذيل الربوبية مرة بعد مرة والاعتراف بالملوكية والولاية، والوقوف موقف الذلة ومسكنة العبودية قبال رب العزة مما لا يحتاج إلى بيان.

وفي القرآن الكريم تأديبات إلهية وتعليمات عالية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأقسام من الثناء يثني بها على ربه أو المسألة التي يسأله بها كما في قوله تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء﴾[٥٠] إلى آخر الآيتين وقوله تعالى: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك﴾[٥١] وقوله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾[٥٢] وقوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله...﴾[٥٣] وقوله تعالى: ﴿وقل رب زدني علماً﴾[٥٤] وقوله: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين...﴾[٥٥] إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة جداً.

ويجمعها جميعاً أنها تشتمل على أدب بارع أدّب الله به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وندب هو إليه أمته.

٧ ـ رعايتهم الأدب عن ربهم فيما حاوروا قومهم، وهذا أيضاً باب واسع وهو ملحق بالأدب في الثناء على الله سبحانه، وهو من جهة أخرى من أبواب التبليغ العملي الذي لا يقصر أو يزيد أثراً على التبليغ القولي.

وفي القرآن من ذلك شيء كثير. قال تعالى ـ في محاورة جرت بين نوح وقومه: ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين * ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾[٥٦] ينفي عليه السلام عن نفسه ما نسبوا إليه من إتيان الآية ليعجزوه به، وينسبه إلى ربه ويبالغ في الأدب بقوله: ﴿إن شاء﴾ ثم بقوله ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي لله، ولذلك نسبه إليه تعالى بلفظ «الله» دون لفظ «ربي» لأن الله هو الذي ينتهي إليه كل جمال وجلال، ولم يكتف بنفي القدرة على إتيان الآية عن نفسه وإثباته حتى ثناه بنفي نفع نصحه لهم إن لم يرد الله أن ينتفعوا به، فأكمل بذلك نفي القدرة عن نفسه وإثباته لربه، وعلل ذلك بقوله: ﴿هو ربكم وإليه ترجعون﴾.

فهذه محاورة غاصة بالأدب الجميل في جنب الله سبحانه حاور بها نوح عليه السلام الطغاة من قومه محاجاً لهم، وهو أول نبي من الأنبياء عليهم السلام فتح باب الاحتجاج في الدعوة إلى التوحيد، وانتهض على الوثنية على ما يذكره القرآن الشريف.

وهذا أوسع هذه الأبواب مسرحاً لنظر الباحث في أدب الأنبياء عليهم السلام يعثر على لطائف من سيرتهم المملوءة أدباً وكمالاً، فإن جميع أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم مبنية على أساس المراقبة والحضور العبودي، وإن كانت صورتها صورة عمل من غاب عن ربه وغاب عنه ربه سبحانه. قال تعالى: ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبّحون الليل والنهار لا يفترون﴾[٥٧].

وقد حكى الله تعالى في كلامه محاورات كثيرة عن هود وصالح وإبراهيم وموسى وشعيب ويوسف وسليمان وعيسى ومحمد صلّى الله عليه وآله وسلم وعليهم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام في حالات لهم مختلفة كالشدة والرخاء والحرب والسلم والإعلان والإسرار والتبشير والإنذار وغير ذلك.

تدبر في قوله تعالى: ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي﴾(٥٨) يذكر موسى عليه السلام إذ رجع إلى قومه وقد امتلأ غيظاً وحنقاً لا يصرفه ذلك عن رعاية الأدب في ذكر ربه.

وقوله تعالى: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾(٥٩) وقوله تعالى: ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾(٦٠) يذكر يوسف في خلاء المراودة الذي يملك من الإنسان كل عقل، ويبطل عنده كل حزم لا يشغله ذلك عن التقوى ثم عن رعاية الأدب في ذكر ربه ومع غيره.

وقوله تعالى: ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾(٦١). هذا سليمان عليه السلام وقد أوتي من عظيم الملك ونافذ الأمر وعجيب القدرة أن أمر بإحضار عرش ملكة سبأ من سبأ إلى فلسطين فأحضر في أقل من طرفة عين فلم يأخذه كبر النفس وخيلاؤها، ولم ينس ربه ولم يمكث دون أن أثنى على ربه في ملته بأحسن الثناء.

وليقس ذلك ما ذكره الله من قصة نمرود مع إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت﴾(٦٢) وقد قال ذلك إذ أحضر رجلين من السجن فأمر بقتل أحدهما وإطلاق الآخر.

أو إلى ما ذكره فرعون مصر إذ قال كما حكاه الله: ﴿... يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب﴾(٦٣) يباهي بملك مصر وأنهاره ومقدار من الذهب كان يملكه هو وملأُه ولا يلبث دون أن يقول كما حكى الله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وهو الذي كانت تستذله آيات موسى يوماً بعد يوم من طوفان وجراد وقمل وضفادع وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾(٦٤) وقوله: ﴿وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً... فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبّأني العليم الخبير﴾(٦٥) فلم يهزهزه صلّى الله عليه وآله وسلم شدة الأمر والهول والفزع في يوم الخوف أن يذكر أن ربه معه ولم تنجذب نفسه الشريفة إلى ما كان يهدده من الأمر، وكذا ما أسرّ به إلى بعض أزواجه في الخلوة في اشتماله على رعاية الأدب في ذكر

ربه.

وعلى وتيرة هذه النماذج المنقولة تجري سائر ما وقع في قصصهم عليهم السلام في القرآن الكريم من الأدب الرائع والسنن الشريفة، ولولا أن الكلام قد طال بنا في هذه الأبحاث لاستقصينا قصصهم وأشبعنا فيها البحث.

٨ ـ أدب الأنبياء عليهم السلام مع الناس في معاشرتهم ومحاورتهم. مظاهر هذا القسم هي الاحتجاجات المنقولة عنهم في القرآن مع الكفار، والمحاورات التي حاوروا بها المؤمنين منهم، ثم شيء يسير من سيرتهم المنقولة.

أما الأدب في القول فإنك لا تجد فيما حكي من شذرات أقوالهم مع العتاة والجهلة أن يخاطبوهم بشيء مما يسوؤهم أو شتم أو إهانة أو إزراء، وقد نال منهم المخالفون بالشتم والطعن والاستهزاء والسخرية كل منال فلم يجيبوهم إلا بأحسن القول وأنصح الوعظ معرضين عنهم بسلام، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.

قال تعالى: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ـ يعني قوم نوح ـ ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾(٦٦).

وقال تعالى حكاية عن عاد قوم هود: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه﴾(٦٧) يريدون باعتراء بعض آلهتهم إياه بسوء ابتلاءه عليه السلام بمثل جنون أو سفاهة ونحو ذلك.

وقال تعالى حكاية عن آزر: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً﴾(٦٨).

وقال تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾(٦٩).

وقال تعالى: ﴿قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السماوات والأرض وما بينهما... قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾(٧٠).

وقال تعالى حكاية عن قوم مريم: ﴿... قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً...﴾(٧١).

وقال تعالى يسلي نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فيما رموه به من الكهانة والجنون والشعر: ﴿فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون * قل تربّصوا فإني معكم من المتربصين﴾(٧٢).

وقال: ﴿... وقال الظالمون إن تتبعون إلا

رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾(٧٣).

إلى غير ذلك من أنواع الشتم والرمي والإهانة التي حكي عنهم في القرآن، ولم ينقل عن الأنبياء عليهم السلام أن يقابلوهم بخشونة أو بذاء بل بالقول الصواب والمنطق الحسن اللين اتباعاً للتعليم الإلهي الذي لقنهم خير القول وجميل الأدب قال تعالى خطاباً لموسى وهارون (عليهما السلام): ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾(٧٤) وقال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً﴾(٧٥).

ومن أدبهم في المحاورة والخطاب أنهم كانوا ينزلون أنفسهم منزلة الناس فيكلمون كل طبقة من طبقاتهم على قدر منزلتها من الفهم، وهذا ظاهر بالتدبر فيما حكي من محاوراتهم الناس على اختلافهم المنقولة عن نوح فمن بعده، وقد روى الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

وليعلم أن البعثة بالنبوة إنما بنيت على أساس الهداية إلى الحق وبيانه والانتصار له، فعليهم أن يتجهزوا بالحق في دعوتهم، وينخلعوا عن الباطل ويتقوا شبكات الضلال أياً ما كانت، سواء وافق ذلك رضى الناس أو سخطهم، واستعقب طوعهم أو كرههم ولقد ورد منه تعالى أشد النهي في ذلك لأنبيائه وأبلغ التحذير حتى عن اتباع الباطل قولاً وفعلاً بغرض نصرة الحق فإن الباطل باطل سواء وقع في طريق الحق أو لم يقع، والدعوة إلى الحق لا تجامع تجويز الباطل ولو في طريق الحق، والحق الذي يهدي إليه الباطل وينتجه ليس بحق من جميع جهاته.

ولذلك قال تعالى: ﴿وما كنتُ متَّخِذَ المضِلِّين عضُداً﴾(٧٦) وقال: ﴿ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾(٧٧). فلا مساهمة ولا ملابسة ولا مداهنة في حق ولا حرمة لباطل.

ولذلك جهز الله سبحانه رجال دعوته وأولياء دينه وهم الأنبياء عليهم السلام بما يسهل لهم الطريق إلى اتباع الحق ونصرته، قال تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً * الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾(٧٨) فأخبر أنهم لا يتحرجون فيما فرض الله لهم ويخشونه ولا يخشون أحداً غيره فليس أي مانع من إظهارهم الحق ولو بلغ بهم أي مبلغ وأوردهم أي مورد.

ثم وعدهم النصر فيما انتهضوا له فقال: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾(٧٩) وقال: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾(٨٠).

ولذلك نجدهم فيما حكي عنهم لا يبالون شيئاً في إظهار الحق وقول الصدق وإن لم يرتضه الناس واستمرأوه في مذاقهم، قال تعالى حاكياً عن نوح يخاطب قومه: ﴿ولكني أراكم قوماً

تجهلون﴾[٨١] وقال عن قول هود: ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾[٨٢] وقوله لقومه: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان﴾[٨٣]، وقال تعالى يحكي عن لوط: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾[٨٤] وحكى عن إبراهيم من قوله لقومه: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾[٨٥] وحكى عن موسى في جواب قول فرعون له: ﴿... إني لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾[٨٦] أي ممنوعاً من الإيمان بالحق مطروداً هالكاً، إلى غير ذلك من الموارد.

فهذه كلها من رعاية الأدب في جنب الحق واتباعه، ولا مطلوب أعزّ منه ولا بغية أشرف منه وأغلى، وإن كان في بعضها ما ينافي الأدب الدائر بين الناس لابتناء حياتهم على اتباع جانب الهوى والسلوك إلى أمتعة الحياة بمداهنة المبطلين والخضوع والتملق إلى المفسدين والمترفين سياسة في العمل.

وجملة الأمر أن الأدب كما تقدم في أول هذه المباحث إنما يتأتى في القول السائغ والعمل الصالح، ويختلف حينئذ باختلاف مسالك الحياة في المجتمعات والآراء والعقائد التي تتمكن فيها وتتشكل هي عنها، والدعوة الإلهية التي يستند إليها المجتمع الديني إنما تتبع الحق في الاعتقاد والعمل، والحق لا يخالط الباطل ولا يمازجه ولا يستند إليه ولا يعتضد به، فلا محيص عن إظهاره واتباعه، والأدب الذي يتأتى فيه أن يسلك في طريق الحق أحسن المسالك ويتزيى فيه بأظرف الأزياء كاختيار لين القول إذا صح أن يتكلم بلينة وخشونة، واختيار الاستعجال في الخير إذا أمكن فيه كل من المسارعة والتبطي.

وهذا هو الذي يأمر به في قوله تعالى: ﴿وكتبنا له ـ أي لموسى ـ في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾[٨٧] وبشر عباده الآخذين به في قوله: ﴿فبشرّ عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[٨٨] فلا أدب في باطل ولا أدب في ممزوج من حق وباطل فإن الخارج من صريح الحق ضلال لا يرتضيه ولي الحق وقد قال: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾[٨٩].

وهذا هو الذي دعا أنبياء الحق إلى صراحة القول وصدق اللهجة وإن كان ذلك في بعض الموارد مما لا ترتضيه سنة المداهنة والتساهل والأدب الكاذب الدائر في المجتمعات غير الدينية.

ومن أدبهم مع الناس في معاشرتهم وسيرتهم فيهم احترام الضعفاء والأقوياء على حد سواء والإكثار والمبالغة في حق أهل العلم والتقوى منهم فإنهم لما بنوا على أساس العبودية وتربية النفس الإنسانية تفرع عليه تسوية الحكم في الغني والفقير والصغير والكبير والرجل والمرأة والمولى والعبد والحاكم والمحكوم والأمير والمأمور والسلطان والرعية، وعند ذلك لغى تمايز الصفات، واختصاص الأقوياء بمزايا

اجتماعية، وبطل تقسم الوحدان والفقدان والحرمان والتنعم والسعادة والشقاء بين صفتي الغنى والفقر والقوة والضعف، وإن للقوي والغني من كل مكانة أعلاها، ومن كل عيشة أنعمها، ومن كل مجاهدة أروحها وأسهلها، ومن كل وظيفة أخفها بل كان الناس في ذلك شرعاً سواء، قال: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٩٠) وتبدل استكبار الأقوياء بقوتهم ومباهاة الأغنياء بغنيتهم تواضعاً للحق ومسارعة إلى المغفرة والرحمة، وتسابقاً في الخيرات وجهاداً في سبيل الله وابتغاء لمرضاته.

واحترم حينئذ للفقراء كما للأغنياء، وتؤدب مع الضعفاء كما مع الأغنياء بل اختص هؤلاء بمزيد شفقة ورأفة ورحمة، قال تعالى يؤدب نبيه صلّى الله عليه وآله وسلم: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرُطاً﴾(٩١). وقال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾(٩٢)، وقال: ﴿لا تمدنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إني أنا النذير المبين﴾(٩٣).

ويشتمل على هذا الأدب الجميل ما حكاه الله من محاورة بين نوح عليه السلام وقومه إذ قال: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ـ أي في تحقيركم أمر الفقير الضعيف ـ * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ـ أي لا أدعي شيئاً يميزني منكم بمزية إلا أني رسول إليكم ـ ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم ـ أي من الخير والسعادة اللذين يرجيان منهم ـ إني إذاً لمن الظالمين﴾(٩٤).

ونظيره في نفي التمييز قول شعيب لقومه على ما حكاه الله: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾(٩٥)، وقال الله تعالى يعرف رسوله صلّى الله عليه وآله وسلم للناس: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾(٩٦) وقال أيضاً: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم﴾(٩٧) وقال أيضاً: ﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾(٩٨) وقال أيضاً وفيه

جماع ما تقدم: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٩٩].

وهذه الآيات وإن كانت بحسب المعنى المطابقي ناظرة إلى أخلاقه صلّى الله عليه وآله وسلم الحسنة دون أدبه الذي هو أمر وراء الخلق، إلّا أن نوع الأدب ـ كما تقدم بيانه ـ يستفاد من نوع الخلق، على أن نفس الأدب من الأخلاق الفرعية.

الهوامش

١. يوسف: ٣٣.
٢. يوسف: ٢٢.
٣. يوسف: ٤٠.
٤. يوسف: ٣٥.
٥. يوسف ٩٩ـ ١٠١.
٦. يوسف: ٦.
٧. يوسف: ١٠٠.
٨. البقرة: ١٣٠ـ ١٣٢.
٩. الشعراء: ٨٣.
١٠. القصص: ١٦.
١١. القصص: ٢٤.
١٢. البقرة: ١٩٩.
١٣. مريم: ٥١.
١٤. ص: ٨٢ـ ٨٣.
١٥. طه: ٢٥ـ ٣٥.
١٦. الأحزاب: ٣٨.
١٧. يونس: ٨٨ـ ٨٩.
١٨. الأنعام: ١٥٨.
١٩. الأعراف: ١٥٦.
٢٠. طه: ٥٦.
٢١. الأعراف: ١٥٥ـ ١٥٦.
٢٢. الأعراف: ١٥٦.
٢٣. البقرة: ٥٥ـ ٥٦.
٢٤. البقرة: ٢٦.
٢٥. الأعراف: ١٥٠.
٢٦. الأعراف: ١٥١.
٢٧. الأعراف: ١٥٢.
٢٨. المائدة: ٢٤.
٢٩. المائدة: ٢٥.
٣٠. الأعراف: ٨٩.
٣١. يونس: ٤٧.
٣٢. الأعراف: ٨٨.
٣٣. النمل: ١٥.
٣٤. القصص: ٧٨.
٣٥. المؤمن: ٨٣.
٣٦. الفرقان: ٧٤.
٣٧. النمل: ١٩.
٣٨. الأنبياء: ٨٧.
٣٩. الصافات: ١٤٣ـ ١٤٤.
٤٠. الأنبياء: ٨٨.
٤١. الصافات: ١٤٥ـ ١٤٨.
٤٢. الأنبياء: ٨٣.
٤٣. مريم: ٢ـ ٦.
٤٤. آل عمران: ٣٧ـ ٣٨.
٤٥. مريم: ٨ـ ٩.
٤٦. المائدة: ١١٤.
٤٧. المائدة: ١١٦ـ ١١٨.
٤٨. الأنبياء: ٢٦.
٤٩. البقرة: ٢٨٥ـ ٢٨٦.
٥٠. آل عمران: ٢٦.
٥١. الزمر: ٤٦.
٥٢. النمل: ٥٩.
٥٣. الأنعام: ١٦٢.
٥٤. طه: ١١٤.
٥٥. المؤمنون: ٩٧.
٥٦. هود: ٣٢ـ ٣٤.
٥٧. الأنبياء: ١٩ـ ٢٠.
٥٨. طه: ٨٦.
٥٩. يوسف: ٢٣.
٦٠. يوسف: ٩١ـ ٩٢.
٦١. النمل: ٤٠.
٦٢. البقرة: ٢٥٨.
٦٣. الزخرف: ٥١ـ ٥٣.
٦٤. التوبة: ٤٠.
٦٥. التحريم: ٣.
٦٦. هود: ٢٧ـ ٢٨.
٦٧. هود: ٥٤ـ ٥٥.
٦٨. مريم: ٤٦ـ ٤٧.
٦٩. الأعراف: ٦٦ـ ٦٨.
٧٠. الشعراء: ٢٣ـ ٢٨.
٧١. مريم: ٢٧ـ ٣٣.
٧٢. الطور: ٢٩ـ ٣١.
٧٣. الفرقان: ٨ـ ٩.
٧٤. طه: ٤٣ـ ٤٤.
٧٥. الإسراء: ٢٨.
٧٦. الكهف: ٥١.
٧٧. الإسراء: ٧٤ـ ٧٥.
٧٨. الأحزاب: ٣٨ـ ٣٩.
٧٩. الصافات: ١٧١ـ ١٧٣.
٨٠. المؤمن: ٥١.
٨١. هود: ٢٩.
٨٢. هود ٥٠.
٨٣. الأعراف: ٧١.
٨٤. الأعراف: ٨١.
٨٥. الأنبياء: ٦٧.
٨٦. الإسراء: ١٠١ـ ١٠٢.
٨٧. الأعراف: ١٤٥.
٨٨. الزمر: ١٧ـ ١٨.
٨٩. يونس: ٣٢.
٩٠. الحجرات: ١٣.
٩١. الكهف: ٢٨.
٩٢. الأنعام: ٥٢.
٩٣. الحجر: ٨٨ـ ٨٩.
٩٤. هود: ٢٧ـ ٣١.
٩٥. هود: ٨٨.
٩٦. التوبة: ١٢٨.
٩٧. التوبة: ٦١.
٩٨. القلم: ٤.
٩٩. الأنبياء: ١٠٧.